الفصل الحادي عشر

الشيطانة الجميلة

ثم نهض البرنس سكولوف الى احدى نوافذ غرفته التي تشرف على شارع الكسندر نيوسكي ووقف فيها ينظر الى المركبات السائرة ذهابًا وايابًا لاهيًا بسماع اصوات اجراسها وجلبة سائقيها وخرير عجلاتها حتى سئمت نفسهُ التطلع فاغلق الشباك سادًّا في وجهه بقايا النور النافذة من بقية ذلك النهار الذي لم يبقَ من ضياء شمسه المتوارية سوى اشعة شفق ضئيلة ورجع الى مجلسه يعيد النظر في ما امامهُ من الكتب والوسائل . وبعدما طواها جميعها ووضعها في مكانها الخاص جاءلاً رسالة الشيطانة الجميلة في اسفلها بدا لهُ ما بعثهُ على استئناف فضها واذ ذاك وضع رأسهُ بين يديه ضاغطًا بهما صدغيه وقال : —

— يا عجبا ! من عسى ان تكون هذه المرأة العجيبة ؟ وما هي حقيقة امرها ؟ فلقد امتازت عن جميع وكلاء حكومة روسيا في غموض الحال وخفاء النسبة حتى لا يُعلم عنها شيء . فمن هي ؟ — بل بالحري من كانت ؟ ومن كان او يكون البارون التدروف ؟ عبثًا حاولتُ البحث والتفتيش وباطلاً تكلفتُ استطلاع امرها . ففي كل مكان تقريبًا كنا نُعضَد بمساعيها ونسعد بنجاح مشوراتها واما بها فلم نوفَّق بعد الى الاجتماع . على انهُ لا بأس من هذا كله فعلى رغم هذه الخفايا لا ازال اثق بها واتَّكل عليها واثمنها اكثر من ديمتري كيراتيف كاتم اسراري . وقد جعلنا صندوق ادارتنا تحت امرها مدة خمس سنوات فلو كانت املي دشتون وكيلتي الانكليزية مكانها مثلاً لحمَّلتنا نفقاتٍ تفوق المليون اما الشيطانة الجميلة فاعظم شدة امانتها في الخدمة ونزاهتها في السعي ومهما يكن من الباعث على إخفاء امرها عنا فلا بدَّ انهُ يكون قويًّا وغاية في الاهمية ولا مندوحة لها عن رفع النقاب وكشف الحجاب متى حان الوقت وزالت الاسباب . وقد ذكرت في ذيل رسالتها الاخيرة انها قادمة الينا فمتى تصل ؟ وحق مار نيقولا اني متوقع بل متلهف ان أشاهدها . ثم التفت نحو خفير الادارة الذي دخل الغرفة بعد قرع لطيف على بابها وسمعهُ يقول

— هو ذا سيدة تروم مخاطبة سموكم

ودفع اليهِ رقعة مطبوعًا عليها " الكونتس لاروش في شارع حنة بباريس " وتحت هذا العنوان مكتوب باللغة الروسية " فندق اوربا — افرويكائيًا غرستيتزا ".

— اما اخبرتها ان الادارة أُقفلت ؟

— بلى يا سيدي ولكنها طلبَتْ ان انظر هل سموكم هنا

— هل اوضحتْ لك مرادها ؟

— كلاَّ بل قالت انها جاءت الآن من فينا

— من فينا ؟ اه ! اذاً قل لها ان تدخل ومر اثنين من الحراس ان يقفا على جانبي طريقها وقد امر البرنس باجراء هذا الاحتياط لانهُ ثَبت لهُ مكيدة الاغتيال مرتين في هذا المكان عينهِ وبالجهد نجا منهما ولهذا استعدَّ الآن منعاً لمفاجأة ما لم يكن في الحسبان

وبعد نحو دقيقتين دخلت المرأة حتى بلغت الباب فوقفت وقالت : —

— أهنا البرنس سكولوف ؟ فقال نعم ادخلي واجلسي

- قال هذا باللغة الروسية فاجابتهُ باللغة نفسها : —

— اراك وضعت حرسك القوزاق تحوُّطاً وكان يجب عليَّ ان اكفيك مشقة هذا التحرُّس باعلان اسمي — البارونة التدوروف . على انهُ يهمني ان اكون الكونتس لاروش الماثلة لاسباب صحية وما اطلعت الخفير على الاسم الذي ينبغي ان أُعرَّف بهِ ما دمت في بطرسبرج

وكان في كلامها هذا نوع من الابهة وعلو الشأن وهي جالسة على كرسي مقابل البرنس سكولوف اما هو فكان لم يبرح واقفاً حتى اذا فرغت من كلامها اجابها ببساطة : —

— الست الشيطانة الجميلة ؟ فقالت بلى انا هي

فسار نحو الباب ونادى "شورسكهو ! اوغون ! اذهبا . ثم رجع وجلس على كرسيهِ وقال : —

— لا حاجة الى اضاعة الوقت بسرد عبارات الشكر والثناء وانما اقول حسبي اني ارى الشيطانة الجميلة وجهاً لوجهٍ . ولكِ ان تشيري الى غرضك من هذه الزيارة بما ترومين من اساليب التعبير ومتى شئتِ

— لقد حان وقت اجتماعنا لأن المفاوضات انتهت في فينا وسترى ان بسمرك واندراسي متفقان منذ البداءة وسيظلاَّن كذلك الى النهاية . اما سياسة انكلترا فقد قُطعت وجفَّت . واذ قد دبروا هم مقاصدهم ترتب علينا نحن ان نبادر ايضاً الى رسم خطة مقاصدنا

— مقاصدنا ؟

— نعم مقاصدك ومقاصدي

— ايها السيدة فران التدروف اسمحي لي بهذا الطلب وهو ان يقف كلٌّ منا على مراد الآخر من البداءة —

فعارضتهُ مصححةً : —

— أُدعني الكونتس لاروش اذا كنت تريد

— نعم نعم الكونتس لاروش . انت نازلة في فندق اوربا . هل معكِ جواز سفر؟ لابدَّ من ان يكون معكِ —

— معي خمسة . واخرجت من جيبها رزمة وقالت : —

— هذا هي . انظر . هوذا اثنان منها بتوقيعك . وهذا المعنون باسم الكونتس لاروش أُرِّخ واصدر في باريس . وهذا باسم السيدة "دامين" اصدر في لندن . وهذا باسم البارونة التدروف موقَّع منك في برلين . وهذا بالاسم والتوقيع عينهما في فينا . وهذا باسم السيدة "راكريوتزا" في الاستانة

فاخذت الحيرة مَنَ رئيس البوليس كل مأخذ حتى قال لها : —

— صدقيني انكِ في دقيقتين ادهشتني الى حدٍّ لم اعرفهُ من قبلُ فهل تسمحين لي ان اسألكِ عن وطنكِ لانك تتكلمين الروسية بكل ضبطٍ ولكن بلهجة غريبة وهكذا الفرنسوية

— انني شائعة الوطنية . فانا انكليزية وفرنسوية والمانية وروسية . والآن بداعي مقصدنا الحاضر رومانية وفي كل مكان الشيطانة الجميلة ! فهل اتضح لك امري ؟

— نعم اتضحت لي ذاتيتكِ . فارجو ان تحسبي ادارة البوليس موقوفة على خدمتكِ وطوع اشارتك . فما وراءكِ من الانباء ؟

— اكثر مما يمكننا ان نخوض عبابهُ الآن . ولكن لي سؤال واحدٌ ألقيهِ قبلما ينتهي اجتماعنا هذا وهو متى تشهر الحرب ؟

— الحرب ؟

— نعم الحرب — على تركيا

اما سكولوف فقبلما يجيبها على سؤالها انحنى الى الامام وازاح الظل عن المصباح حتى شرقت الغرفة بالنور ثم تفرَّس في وجهها وتفحصها بعين نقَّادة ولما لم يوجس فيها اقلَّ ارتياب قال : —

— متى رفض الباب العالي الشروط المطروحة لدى المؤتمر

— ليس في طبيعة تلك الشروط ما يحمل الباب العالي على القبول

— هكذا أرى

— حسنٌ ! فحسبنا الآن . وغدًا أُطلعكِ على رأيي في هذا الامر . هكذا اتفقنا ؟

— كل الاتفاق

ثم انصرفت ورجع البرنس الى تأملاته الانفرادية متفكرًا متبصرًا

الفصل الثاني عشر

مرقب سياسي

وفي عصر اليوم التالي خلا البرنس سكولوف بالبارونة التدروف يأتمران فاستهلّت الكلام وقالت : —

— مما اعلمهُ ان الشروط المقترحة على مجلس شورى الدولة العثمانية يستحيل قبولها وعند ما يتمّ هذا وتقيم الدول الحجة تجتاز جيوش روسيا نهر البرت وتدخل اسيا على طريق باطوم او القارص بلا تاخر

— نعم

— اية مقاومة نلقى ؟

— في اوربا نلقى بعض المقاومة وقد لا نلقى شيئاً لان رومانيا تتحد معنا ويرتجّ ن بلغاريا تنضمّ الينا اما في اسيا فقد نجد بعض الصعوبة من مقاومة مختار باشا

— واين ننشئ مرقبنا السياسي ؟

— في اودسا

— هذا خطأٌ لانهُ يكون بعيداً جدًّا عن الاستانة

— وهل عند الشيطانة الجميلة مكان افضل منهُ ؟

— نعم عندها والاّ لم تأتِ الى هنا . اسمح لي بخريطة البلاد

فجاءها بالخريطة ووضعها امامها على مائدةٍ واخذا كلاهما ينظران فيها وطفقت تشير باصبعها وتتكلم بسرعةٍ وتأكيد كمن يقرّر شيئاً يعلمهُ حق العلم ومما قالتهُ : —

— بعد ما تشهر الحرب وقبلما تبلغ الدانوب تُـمَدُّ في وجوهنا حالاً جهة المسير الى الاستانة عن طريق وارنا ويقام الحصار على موانئ البحر الاسود كلها ويتعذّر المسير في اية فرضةٍ بحرية كانت . والخطُّ الوحيد الذي يبقى لاتصال المفاوضة بين الدول والباب العالي انما يكون من جهة البلقان على طريق مضيق شيبكا . ولكي يبلغ الرسل هذه النقطة يترتب عليهم المرور ببلغراد وودن وقد يمرّون ببلاڤنا ايضاً . ومن شيبكا يلزمهم ان يأتوا الاستانة على طريق اسكي زهره وادرنا نوبل وبين هذين المكانين قرية دوه كوي . ففي هذه القرية تقيم السيدة راكزيوتزا الروملية مرقبها على الفور وعند اجتياز عساكرنا نهر البرت تكون هي قد رتّبت مقامها هناك ويكون سمو البرنس سكولوف دائماً ضيفاً مكرماً ونزيلاً مأهولاً به عندها

ولما فرغت من كلامها رفعت نظرها الى وجهه لتقرأ فيه تأثير كلماتها فقال : —

— اذاً من رأيك

— ان اقيم مرقباً سياسياً بعيداً عن المدن الكبيرة والمراكز الحربية — مرقباً على الطريق الوحيدة بين اوربا والاستانة

لكنَّ اشغالي الآن تدعوني الى باريس ولندن فلا اقدر ان اكون في المكان الذي تشير بن اليه

— لكني انا اقدر وفي عزمي ان اكون هناك بعد شهر

— وهل تستطيعين ان تعلمي بالتحقيق ماذا تكون حالة بلغاريا في اثناء هذه الحرب ؟ الا توجسين فيها خطراً ؟

فقلبت شفتها باستخفاف وقالت : وهل تظن ان المرأة التي عاشت عيشة الشيطانة الجميلة تنكص عن الاقدام على سفر في بلاد مشهورة في الميل الى روسيا ؟ واذا سألت في فيلبي وصوفية عن السيدة راكزيوتزا رأيت ما يقنعك بانهُ لا خوف عليَّ في البلقان

فقضى البرنس سكولوف بضع دقائق صامتاً وعيناهُ شاخصتان فيها ثم قال لها : —

— ايها البارونة . اراني في غنى عن طلب بينة على ما انتِ فيهِ وعليكِ لوائح الرغبة في تأييدهِ بالحجج القاطعة . ولكن من الواضح الجلي انهُ لا بد من حادث مخيف طما سيلهُ الجارف عليكِ واضطركِ ان تغوصي في لجج المكايد السياسية الزاخرة وتقتحمي زوابعها الثائرة وتجوبي مسالكها المتعادية ومسافاتها المترامية

— نعم انهُ حادث مخيف الى الغاية وكارث جهلتُ نتائج بدايتهِ فلم اعد اعرف لها نهاية . ولقد نزع مني هولهُ كل عواطف الاناث وجرَّدني من شعور النساء وغادر في حليفة الهياج والزيغ والالتواء . وحينما اغنيل ديمتري كيراتيف بايدي عصابة الكسس دورسكي وخلفتهُ انت باجماع الامة قضيتُ نحو شهر اترقَّب اعمالك واتدبَّر طرقك بعين التفحص والامعان حتى تحققت ان رئاسة البوليس في ايامك لا تكون وظيفة تنفق عليها الرواتب الفاحشة بلا فائدة . فكتبت اليك وانت ندبتني الى عملي الاول وعلى الفور نبذتُ عني الثوبيتي — وبكلمة اقول — صرت الشيطانة الجميلة

— كنت اودُّ ايها البارونة لو اننا اجتمعنا قبل الآن لانهُ لا يستحيل على من كان مثلي ادراك ما تسوَّلهُ لهُ نفسهُ من الشهرة والرفعة بمساعدة شريكة نظيرك

— فارسلت اليهِ نظرة الحذر واستأنفت لهجتها الزينة التي كانت مطبوعة عليها وقالت

— ميان عندي اجتمعنا الآن او قبل وقت طويل لاني لست على شيء سوى البغض وحب الانتقام واظنك ادركت مرامي ولم تبقَ من حاجة الى الكلام

ثم تغيرت جهة الحديث بينهما . وبعد اسبوعين اتفقا على انشاء المرقب السياسي فقضيا مدة في الاعتزال والانفراد يتباحثان في المسائل المهمة حتى اذا فرغا من التداول في كل شأن خطير قامت ثتأهب لمزايلة بطرس برج واخذ هو يستعد للشخوص الى لندن عن طريق باريس وفي اجتماعهما الاخير قالت لهُ : انتهى كل شيء . فقال تقريباً — فقالت — كيف تقريباً ؟ فهل عندك شيء آخر ؟ فقال — نعم اعيريني سمعك بضع دقائق ايها البارونة فان ما بقي عندي من الكلام ليس بقليل الاهمية

ثم اطرق هنيهة كأنهُ يجهد نفسهُ في استحضار الالفاظ المناسبة للتعبير عن مرادهِ وعاد يستأنف الخطاب : —

— انكِ لم تسفري لي اللئام ايها البارونة عن محيَّا وطنيتك . ومن جهتي لست في حاجة الى ذلك وما اعلمهُ هو انكِ عادمة المثال كما انكِ بعيدة الاستقصاء ومهما يكن من امر ولادتك المجهولة ونشأتكِ الخفية فانت حرية جدًّا بان تشرِّفي كل اسم تتنازلين الى اتخاذهِ ومما لا يخفى عليكِ ان اسرة سكولوف ليس لها ثانٍ في روسيا . وقبل عهد تاريخنا كانت مجارية لاسرة رومانوف ودولغوروكس وكرستوف في سمو الشأن وعلو المكانة . فهذا الاسم او اللقب (سكولوف) اعرضهُ عليك بكل خشوع . فهل تريدين ان تكوني زوجةً لي ؟

— ايها البرنس اني آسفة من اعماق نفسي وصميم فؤادي على رفض تشريفك اياي بما عرضتهُ عليَّ لاني لا استطيع ابدًا ان اكون لك اكثر مما انا الآن . لا اجهل اني في حوزتك وقد اوضحت لك اني اريد ان ازيد سلطتك عليَّ بلا خوفٍ ولا حذرٍ ولكن لا يمكنني على الاطلاق ان اكون لك اكثر من مكاتبة . فلننسَ هذا المنظر ولنعُدْ الى مقامنا الاول من حيث سياستنا اذ يستحيل عليَّ ان اكون زوجة لك

فعلا وجه سكولوف انقباض شديد دلَّ عليهِ تقطيب جبهتهِ لكنهُ تغلب على نفسهِ وقال

— لا بدَّ انكِ تعيدين يومًا النظر في هذا الامر وسأترك لكِ حرية ابلاغي متى جاء ذلك اليوم . اما الآن فليس لي ان اقول سوى انني باقٍ — والى الابد — عبدًا لكِ مطيعًا . وهذا كل ما كان ينبغي ايرادهُ . فاستودعكِ الله على رجاء الاجتماع في بداءة العام المقبل في مرقبنا السياسي

الفصل الثالث عشر

لجنة طرائق ووسائل

— خلي عنك يا شقيقتي هذا المراء ولا تكوني طائشة رعناء وايُّ شيطان وسوس لكِ اني انا الذي ليس لي في الافلاس شبيه اقوى على اعداد عشرة آلاف جنيه

— وانتَ خلِّ عنك القساوة والشكاسة ولا تعاملني بشراسة تفوق كل شراسة. ثم أُخذ الماجور هوسركرتر والسيدة املي دشتون ينظران احدهما الى الآخر كأنَّ كلاً منهما يحاول الاطلاع على خفايا الغيب من جبين الآخر. اما هي فاستأنفت كلامها: —

— اعلم انهُ اذا لم يحصل اللورد ارلنفورد يوم الاثنين على هذا المبلغ عشرة آلاف جنيه فلا بدَّ انهُ يفلس وافلاسهُ يسبب خراب شركة المعادن التي لشدة طمعك في الارباح العائدة اليك من وكالتها استقلت من منصبك العسكري في بنغالا وجئت الى هنا (لندن) وحملتني على التحوق بك لأساعدك على ترويج مصالحها واغراء الاغنياء بالاشتراك في اسهمها حتى راجت هذا الرواج العظيم

— ولكن عليهِ من ١٥ الى ٢٠ الف جنيه ديناً وقد اخذت اللجنة تنظر في تصفية حساباتهِ

— وماذا اذا كان عليهِ هذا المقدار؟ اما هو قائم بدفع الربا المفروض عليهِ؟ او نسيت مساعيهُ الحميدة التي بذلها في انجاح اعمال الشركة وتكثير عدد المشتركين. وبواسطتهِ يسهل عليك السعي في اقتناص بركر الاميركي صاحب الملايين وحملهِ على الاشتراك وسيتناول العشاء عندهُ هذه الليلة ويكون من جملة المدعوين. لوداع غوّدارد

— غودّارد؟

— او تجهل هذا الانسان الذائع الصيت قائد فرقة العشرين من الفرسان ورسول الملكة الخاص — اشهر رجل في لندن؟ فقال لم القهُ قط فقالت

— نعم لانهُ ليس من اهل الثروة فلم يقع في اشراك اللجنة المنصوبة لاقتناص الاغنياء

— ارجو ان توصدي فاكِ وتقلعي عن هذا التحذلق فلقد تجاوزتِ فيهِ حدود الاعتدال

— أتحسبني متجاوزة حدود الاعتدال ومطلوبي عشرة آلاف جنيه؟

— او عندي هذا المبلغ؟ ام تظنين اني قادر على تحصيلهِ؟

— اذاً ما العمل؟ فقد ضاقت بي الحيل

— ألا تقدرين ان تقترضيهِ من سكولوف؟ ان الامراء الروسيين هم في الغالب من كبار الاغنياء

— لا ريب في ان سكولوف يقدر ان يقرضني اياهُ ولكن بشرط ان اخدمهُ في ما تساوي فائدتهُ هذه القيمة . وبالامس قال لي ان عندهُ شيئاً يروم مني قضاءهُ لكنني لا استطيع ان اعمل لهُ في ثلثة ايام ما استحق عليهِ عشرة آلاف جنيه

— ولكن عليكِ ان تبذلي جهدكِ فانظري ماذا يريد

— لا بد من السعي في الاجتماع بهِ هذه الليلة . على ان الرجاء ضعيف ثم عقب كلامها سكوت استحوذ عليهما كليهما برهةً وجيزة . فقال الماجور : —

— اليكِ يا أُخيَّة عن هذا الصمت واطلعيني على ما عندكِ من الآراء والتدابير

— عندي انك تخرج الآن الى المدينة وتنقب في اعماق الارض واعالي السماء منشداً باحثاً لعلك توفق الى الحصول على مطلوبي . وساكتب الى سكولوف ادعوهُ الى هنا وعليك انت ان تكتب الى السيدة ارلنفورد وتخبرها بانك تأخرت لعروض بعض الموانع وسوف تحضر بعد العشاء ثم اكتب انا اليها واخبرها باني منحرفة الصحة لكنني ابذل جهدي في الحضور . والساعة التاسعة اجتمع بك في بيت ارلنفورد وهناك يقص كل منا على الآخر نتيجة مساعيهِ لكنني كما سبقت وقلت اقول الآن ان رجائي ضعيف فقال وانا كذلك ولكن سأبذل جهدي

ثم نهض واخذ قبعتهُ وخرج وقامت هي الى مكتبتها وكتبت بضعة اسطر ودعت الخادم ودفعت اليهِ الكتاب وقالت : —

— خذ هذا الى سفارة روسيا وانتظر الجواب

وبعد خروجهِ رجعت الى قرب النار تصطلي

وكانت هذه السيدة املي دشتون — ارملة بردلي دشتون — آية في الحسن والجمال حتى ان سكنى الهند ورداءة هوائها وشدة حرارة شمس بنغالا لم تخدش وضاءة سحنتها ولا ذهبت بشيء من بهاء محاسنها . وهذا ما جعل اللورد ارلنفورد يهيم بها عند ما ذهب الى الهند متصيداً منذ سنتين فاغراها بهجر بنغالا والرجوع الى لندن غير مبالٍ بوجود زوجتهِ فيها فعلمت املي دشتون نفسها بوعد اللورد المذكور بالاقتران بها وجاءت الى انكلترا . وبناء على هذا الامل تراها الآن مهتمة بتفريج ضيقهِ المالي . ورأيناها في مطلع هذا الفصل تباحث اخاها الماجور كرتر في شأنهِ وتستحثهُ على السعي في اعداد هذا المبلغ سداً لخرق صاحبها وتلافياً لخطر افلاسهِ . ولاجل هذا ايضاً ارسلت تدعو الرنس سكولوف الذي عملت على مصادقتهِ منذ رجوعها الى انكلترا فاجابها على كتابها الذي ارسلتهُ اليهِ مع الخادم انهُ قادم لزيارتها فسرّي عنها في الحال وقامت تتناول شيئاً من الطعام وهي تبشّر نفسها بادراك المرام